الاعتماد على النفس

قال يوحنا ستورت مل : قيمة المملكة تتوقف على قيمة أفرادها.

قال دزرائيلي: إننا نعتمد على القوانين أكثر مما يجب ، وعلى الانسان أقل مما يجب

إن جميع الشعوب قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التقدم باجتهاد ألوف من رجالهم زمانا طويلا . فالفعلة وحارثو الأرض ومستخرجو المعادن وأرباب الصناعات والمخترعون والمكتشفون والمصنفون والشعراء والفلاسفة ورجال السياسة ، جميع هؤلاء سعوا في طلب تلك الغاية الجيدة وهي ترقية شأن بلادهم ، وازدياد عمرانها . هؤلاء هم الذين أوجدوا العمران ورفعوا شأن النوع الانساني بمثابرتهم على العلم والعمل .

الاعتماد على النفس من أخص ما يوصف به الشعب الانكليزي وعليه تتوقف قوته كشعب . هذا التفتنا إلى العامة منه رأينا أنه كم من بينهم أناس كانوا من سواقط الشعب فاستحقوا الاكرام من الجميع ، ولكن لم يتوقف تقدم البلاد الانكليزية على هؤلاء الافراد القلائل بل شاركهم فيه أناس دونهم رتبة أي أشخاص من العامة قل ما يعرف عنهم . ألا ترى أن من يذكر خبر انتصار جيش في واقعة من وقائع الحرب يقتصر على ذكر قواد الجيش مع أن النصر تم على يد آحاده . كذلك الحال في هذه الحياة التي هي أشبه شيء بدار حرب دائمة : الاسم فيها لأولي المقام السامي . ولكن في زوايا النسيان رجالا لا يحصى عددهم كانوا وسائط فعالة في إيجاد العمران ورفع شأن الشعوب وهم أكثر عددا من الذين أنصف التاريخ فذكرهم

ولما كانت القدوة من الأمور الفعالة في شؤون البشر كانت كتب سير المشكورين ولا سيما البارزين منهم من أكثر الكتب فائدة حتى إن بعضهم وضعها في المنزلة الأولى بعد الكتب المنزلة لأن فيها أمثلة كثيرة للاعتماد على النفس وثبات العزم وعلو الهمة والنشاط والاستقامة والسعي في النفع العام ونحو ذلك من المحامد التي تدان بكلام صريح أن الذي يعتمد على نفسه ينال اسما حسنا وشهرة لا تنسى .

ورجال العلوم والفنون والآداب وأرباب الافكار وأهل الصناعة لم ينحصروا في فئة من البشر ولم يختصوا بأحد المراتب العالية بل نبغوا من المدارس والمعامل ومن المساكر والمزارع ومن أكواخ الفقراء الحقيرة وقصور الأغنياء الرفيعة. وكم من أناس ارتقوا من أدنى الدركات إلى أعلى الدرجات ولم تعدم المصاعب عن نيل ما تمنوا له الذيل وأمثلة ، هذا

كثيرة جدا لا يسعنا تعدادها فى هذه المجالة وجميعها تثبت صحة المثل القائل : كل من جد وجد : ألا ترى أن (جرى تيلر) الملقب عند الانكليز بقيم الذهب والسر (لوتشرد اركريت) مخترع آلة الغزل ومؤسس معامل القطن والفورد (تشستردق) قاضى القضاة نبغوا من دكان حلاق . وشكسبير رأس شعراء الانكليز لا تعلم حقيقة أمره ولكن لا خلاف فى أنه نبع من أصل وضيع على حد قول ابن الوردى :

ينبت الورد من الشوك وما ينبت النرجس إلا من بصل

فأن أباه كان راعيا وجزارا وهو نفسه كان يعمل فى صباه بمشغلة الصوف على ما يظن . ومن الناس من قال إنه كان خادما فى إحدى المدارس ثم صار كاتبا . كان ذا قريحة وقادة وذكاء مفرط فتفانى من سواه فى سرعة الخاطر ويبنى كل كتاباته على الملاحظة والاختبار فخدم بما جبله ولم تزل لها السلطة القوية على الشعب الانجليزى .

وقام من العرب وغيرهم من أمم المشرق أناس عصاميون لا يحصى عددهم داسوا الفقر الذى ولدوا فيه وجعلوه مرقاة إلى ذروة المجد . فأبو الطيب المتنبى كان ابن سقا ولكنه سما بتوقد ذهنه وبلاغة شعره إلى أسمى المراتب ، وجمعت حكمه فكانت مثل حكم ارسطاطاليس كبير الفلاسفة حتى قال فيه بعضهم :

ما رأى الناس قال المتنبى أى قال يرى لبكر الزمان
هو فى شعره نبى ولكن ظهرت معجزاته فى المعانى

وأبو العتاهية الشاعر المشهور كان يبيع الجرار فقيل له الجرار . وجرير الشاعر كان أبوه فقيرا معدما ، ذكر أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى أن رجلا قال لجرير « من أشعر الناس فقال له : قم حتى أعرفك الجرار ، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عزاله فاعتقلها وجعل يمعن شرعها فصاح به اخرج يا ابن فاعلة فخرج ضبيح دميم رث الهيئة وقد سال لعاب المعز على لحيته ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعرا وفاخرهم فغلبهم جميعا » . والامام أبو حنيفة النعمان كان خزازا أى يبيع الخز . والحجاج بن يوسف الثقفى كان يعلم الصبيان هو وأبوه بالطائف ثم لحق بروح بن زنباع الجذامى وتربى عبد الملك بن مروان فكان فى شرطته ثم رقى المناصب العالية بهمته وإقدامه حتى صار أمير العراق وخراسان وسائر المشرق

وهؤلاء الرجال قلائل جدا فى جانب الذين ضربنا صفحا عن ذكرهم فليس ارتقاؤهم من الأمور النادرة التى لا يبنى عليها حكم بل من الأمور الشائعة جدا حتى يمكننا أن نقول إن كل من سمى فى طلب المجد بهمة عالية وواظب على السعى نال مبتغاه ، بل إذا نظرنا إلى الذين تجحوا بسعيهم رأينا أن الصعوبات والمتاعب التى صادفوها فى أول سعيهم كانت لازمة لنجاحهم .

أبو المكارم خليل
رئيس مدرسة كفر كلا الباب الأرثوذكسية